

تجليات صورة إيموهاغ في السرد الجزائري المعاصر؛ رواية تسوفت لمحمد اقامه أنموذجا
Manifestations of the Image of Imohag in Contemporary Algerian
Mohamed Akmamah's Novel *Tsoft* as a Case Study Literature

* د. خديجة باللودمو

Khadidja Bellaoudmou

مخبر الممارسات اللغوية والأدبية بالمناطق الصحراوية الجزائرية وامتداداتها بالساحل الإفريقي
جامعة أمين العقال الحاج موسى أق أخاموك تامنغست الجزائر

University of Tamanghasset

Khadidja.bella@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/09/02

تاريخ القبول: 2026/06/24

تاريخ الإرسال: 2026/03/15

مُلَاحَظَةُ الْبَحْثِ

تنفق في بداية هذا البحث على أن كلمة إيموهاغ هي الكلمة التي يعبر بها مجتمع الطوارق على أنفسهم ويشبتون بها هويتهم، بينما نطلق عليهم نحن العرب أسماء مختلفة من قبيل الطوارق والتوارق والرجال الزرق، وقد ظلت صورة مجتمع إيموهاغ غامضة في كتابات العرب عامة والجزائريين على وجه الخصوص رغم انتهاء إيموهاغ إلى المجتمع الجزائري منذ القدم إذ يعمر أفرادها الكثير من مناطق الصحراء الجزائرية. سنقدم في هذا البحث صورة لمجتمع إيموهاغ من خلال رواية تسوفت لصاحبها محمد اقامه ابن مدينة تامنغست، وذلك بعرض صورة الرجل في هذا المجتمع وصورة المرأة كذلك، لتكون صورة مجتمع إيموهاغ محصلة هذا البحث، والغاية المرجوة من هذا البحث هي الكشف عن خبايا هذا المجتمع والوقوف على قدرة اللغة على تصوير ما يريد المؤلف قوله من خلالها، إذ أن الإشكالية التي تفرض نفسها بشدة تتمركز حول: مدى استطاعة الراوي أن يصور مجتمع إيموهاغ من خلال تجربته السردية المدروسة؟ وللإجابة على هذه الأسئلة استعنت بالمنهج الوصفي التحليلي، وبمحاولة الإجابة على هذه الإشكالية نصل إلى أهم نتيجة والمتمثلة في ضرورة تفجير آليات السرد لتمثيل الصور المراد إبرازها في رواية دون أخرى.

الكلمات المفتاح: تسوفت، إيموهاغ، أماهغ، تماهغت، سرد، صحراء.

Abstract :

At the outset of this study, we agree that the term "Imuhag" is the word by which the Tuareg community refers to itself and affirms its identity, whereas we Arabs refer to them by various names such as the Tuareg, the Tawarg, and the Blue Men. The image of Imuhag society has remained vague in the writings of Arabs in general and

Algerians in particular, despite the Imuhag's long-standing affiliation with Algerian society, as its members inhabit many regions of the Algerian Sahara. In this study, we will present a portrait of Imuhag society through the novel *Tsoft* by its author, Muhammad Akmamah, a native of the city of Tamenghest, by depicting the image of men in this society as well as that of women, so that the portrait of Imuhag society constitutes the outcome of this research. The intended goal of this study is to uncover the secrets of this society and to examine the language's ability to convey what the author intends to express through it, as the central issue that strongly imposes itself revolves around: To what extent is the narrator able to portray Imohag society through his carefully crafted narrative experience? To answer these questions, I employed a descriptive-analytical approach. In attempting to answer this question, we arrive at the most important conclusion: the necessity of deconstructing narrative mechanisms to represent the images intended to be highlighted in one novel over another.

Keywords: Tsoft, Imohag, Amahag, Tamahag, Sard, Sahara.



مقدمة:

يُعدّ مجتمع إيموهاغ من المجتمعات الضاجة بالأسرار والأساطير التي عُرف بعضها فيما ضاعت الكثير من تفاصيله بموت معتري هذا المجتمع، فالشفوية التي تصحب تراثه وتاريخه أسهمت بشكل سلبي في التعرف عليه بشكل أوفر، وهو ما جعل السرد الجزائري يقف مستغرباً أمام هذا المكون من المجتمع الجزائري؛ ورغم محاولات بعض الإبداعات الجزائرية توصيفه من خلال ما وصل إلى أصحابها من معارف تناقلتها الألسن وبعض المرويات الشفوية المدونة بشكل سطحي وغير دقيق في كثير من الدراسات، إلا أن الصورة الحقيقية لهذا المجتمع تظل غير دقيقة. هذا الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع والدافع الأكبر هو أنني سأدرس مدونة أبداعها أحد أبناء تامنغست المنتمي لأحد أهم البنى الممثلة لمجتمع إيموهاغ بالجزائر؛ وهو محمد أقمامه من خلال التعرف على روايته تسوفت، لأحاول استجلاء تجليات صورة إيموهاغ من خلال هذا الأنموذج، سأمثل لصورة الرجل والمرأة من إيموهاغ لتتشكل صورة مجتمع إيموهاغ بشكل دقيق، وتتمثل إشكالية هذا البحث تحديداً في: كيف تشكلت صورة إيموهاغ في رواية تسوفت؟ وإلى أي مدى استطاعت اللغة أن تصوّر تفاصيل مجتمع إيموهاغ وصورة الرجل والمرأة فيه؟

1- بين الرواية والراوي:

تمثل رواية تسوفت واحدة من الروايات الجزائرية المعاصرة التي انبثقت من ثنايا البيئة الصحراوية ومن أقصى الجنوب الجزائري، من مدينة تامنغست تحديداً، بينما يقف بعض الدارسين رافضين لهذا التقسيم الذي تنشأ عنه

مصطلحات جديدة من قبيل: أدب الصحراء، وأدب إيموهاغ وغيرها، أقف متأملة لحقيقة خصوصية كتابة مقارنة بأخرى، فالسرد الحقيقي يعد بالكثير، إنه مساحة للبوح والانكشاف والوصف، فليس من الغريب أن تكون رواية أقدر على الغوص في بيئة دون أخرى، وهذا الذي يجعلني أقف أمام هذا النموذج بنوع من التأمل والتبصر، فرواية تسوفت لصاحبها محمد أقمامه والتي لم يرد فيها المؤثر التجنيسي في غلافها، بل صنفها كرواية انطلاقا من بعض خصائصها الفنية التي أدخلتها لعالم الرواية دون القصة أو غيرها من الأجناس الأدبية المتفق عليها.

وقد يكون مبدعها أغفل تجنيسها بوعي كبير، فهي تتراوح بين الرواية والقصة إذا اتخذنا معيار القصر والطول للفصل في المسألة؛ أما باعتبار معيار الموضوع فسنجد أنفسنا أمام تصنيفها تحت مسمى السرد الصحراوي والسرد التاريخي والسيرة الذاتية أيضا، ويبقى الفصل فيها اجتهدا شخصيا لا أكثر، وهذا أحد دوافع اختياري لها دون غيرها، لأن النصوص الأدبية المفتوحة والتي تثير الجدل منذ عتباتها الأولى دائما ما تحفظ سرها وتكون عصية على النقد ولا تتصاع طائعة له وتكسر أفق تلقي جمهورها في كل قراءة. قسم محمد أقمامه نصه إلى ستة عشر مقطعا موزعة بين صفحتين وثلاثة عشر صفحة في كل مقطع، ليكون إجمالي صفحاتها 82 صفحة، وقد اختار لها غلafa ميمزا موشحا بالسواد يظهر على غلافه الأمامي صورة أماهغ وهو الرجل الأزرق -على حد تعبيرنا الدارج- لا تبدو منه سوى عيناه وهو الذي جعلنا نطلق على أفراد مجتمع إيموهاغ بالملثمين في كثير من المناسبات، وفي رأس الصفحة ذكر اسم المؤلف: الدكتور محمد أقمامه بالجيم المصرية، وفي أسفلها كتب عنوان النص ببنط غليظ باللسانين العربي والتارقي أو بلغة تماهغت كما يسميها أهلها، أسفلها ظهر اسم دار النشر أدليس.

رواية تسوفت في طبعها الأولى طُبعت سنة 1445 هـ/ 2023 م، والتي قدّم لها محمد أقمامه بمقدمة من صفحتين افتتحها بسؤال: كيف أصف لكم الحياة في الصحراء؟ لأنها ببساطة لا توصف. وهو سؤال أتبعه بجواب لحّص صوت الصحراء ونبضها وعلاقتها بأهلها، ويعبر بصدق توثقه كلماته عن امتنانه لأجداده المجاهدين ويبدو أن هذا هو دافعه الرئيس لكتابة هذه الرواية. ومحمد أقمامه هو طبيب مختص في أمراض وزراعة الكلى، وله سجل حافل بالإنجازات كاستشاري دولي في الهجرة والتنقل وخبير في تعزيز الرعاية الصحية ومدرّب لمنظمات المجتمع المدني، وهو منسق ومشرف على مشروع تعزيز الرعاية الصحية للاجئين في الجزائر، وهو صحفي محرر سابق بالتلفزيون الجزائري ورئيس الجمعية الوطنية الشاي الأخضر، من مؤلفاته: كيل أهقار، قصة سقوط آخر مملكة للبربر، وصمت الحرفان، ورواية تسوفت التي أخذت من غلافها الخلفي هذه المعلومات. واسم تسوفت هو اسم لقرية من قرى تامنغست، وهي القرية التي ترعرع فيها الروائي وعاش ذكريات طفولته.

2- صورة أماهغ من خلال تسوفت:

كتب محمد أقمامه مقولة توسطت صفحة من صفحات الرواية محتواها: (يطلقون علينا اسم طوارق ولكن هذا ليس اسمنا.. نحن ولدنا في هذه الأرض، وأجدادنا أيضا منذ عصور قديمة..) نسبها لكانان أق أنيسي أمرلحا - سجن سرکاجي 1888 م، في دلالة اسم الطوارق، "عُرف التوارق بتسميات عديدة في مراحل تاريخية متلاحقة، ففي عصور ما قبل التاريخ عرفوا بالجرمنتيين، وفي أوائل العصر الإسلامي عرفوا بالملثمين، ثم المرابطين، أما تسمية التوارق فهي مصطلح جديد عرف بعد الفتوحات الإسلامية" (أبرزولع، 2023، صفحة 69) قدّم محمد أقمامه صورة واضحة عن الرجل التارقي

الذي يسمونه أماهغ مفرد إيموهاغ، من خلال مقاطع روايته وسألهم تفاصيل هذه الصورة من خلال تجزئتها إلى تجليات مختلفة لهذا الرجل، فقد صوره في حالات مختلفة تمكنا من رسم صورة كاملة عليه أذكرها كما يلي:

1-2 صورة أماهغ الحكيم:

وأثقلها في شخصية أمنوكال وهو لقب يقابله عند العرب الرئيس أو الملك أو ما اصطلاحوا عليه كمرادف له وهو أمين العقل، وهي شخصية تمثل أماهغ الحكيم القوي الصبور العادل الوقور، "خرج الأمنوكال محمد الخير من الخفية الملكية، محاطا بمستشاريه: افدون. يتقدمون بخطى ثابتة نحو خيمة الضيوف، يتوسطهم محمد الخير بلثامه الأسود البراق (ألشو)، طويل القامة، عريض الكفين، عينان سوداوان براقتان، تصدر منها نظرات حادة، عباءته البيضاء تزيد هيبته ووقارا.." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 9) دار بينه وبين مشايخ القبائل حديث حول الأمطار وقلتها، فهم مرتبطون بها لإثبات قدرتهم على التكيف مع بيئتهم، رغم أنهم كانوا في مقام تهنئة بالمولود الجديد، وهنا يسرد عادة اجتماعية خاصة بإيموهاغ في اختيار اسم المولود الجديد، إذ يحضرون للأُم طبقا منسوجا من ألياف سعف النخيل، توضع فيه أعواد صغيرة يرمز كل عود منها لاسم معين، فتختار عودا بشكل تلقائي لتكتشف اسم مولودها، لكن شخصية الأمنوكال خولته لأن يتجاوز هذه العادة ليوقف ويصرح مباشرة: المولود اسمه اقامه، منحتة اسم اقامه. وهو ما يعكس قوة شخصية أمنوكال وصلحياته التي يتمتع بها في القبيلة، وهو ما مثل صورة أماهغ الحكيم والواعي الذي يحظى بمحبة واحترام الجميع.

تمتع أمنوكال أيضا برؤية سياسية واعية تمكّنه من اتخاذ القرارات الصائبة التي يتفق عليها الجميع، فبحكم مكانته يأخذ على عاتقه توحيد الصف وتقريب الرؤى المختلفة، وهي صفات لا يتمتع بها كل شخص ولهذا فاختياره مشروط ودقيق، فأمنوكال محمد الخير "كان يتمتع بالحنكة السياسية، عمل جاهدا على توحيد كل قبائل إيموهاغ. درس علوم الدين والشريعة في الزاوية التيجانية بالأغواط، مكث فترة في زاوية تماسين، منحدر من قبائل إيمان الذين يلقبونه بالولي، الولي الصالح، زار بيت الله مرتين (...) هو ثاني ملوك الهقار بعد صالح." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 20) ولنا في سيرة كل أمنوكال قصصا شاهدة على هذا الدور المهم في تمكين إيموهاغ من مجابهة الظروف المحيطة بهم، وقد صور الراوي شخصية أمنوكال بدقة حقق من خلالها هذه التفاصيل التي حفظها التاريخ.

إن "اختيار الأمنوكال كان يتم وفق مقاييس معينة من طرف مجلس شيوخ القبائل أو إيمغارن، فالأمنوكال لديه أيضا سلطات قضائية ويستشير شيوخ القبائل في عدة أمور." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 42) ويتكون مجلس شيوخ القبائل أو إيمغارن من ممثلي القبائل وهم المسؤولون عن اختيار رئيسهم المسمى بأمنوكال الذي يتمتع بسلطة معنوية ويرجع في اتخاذ القرارات المهمة إلى مجلس شيوخ القبائل. وهو ما يؤكد على قيمة الصورة التي اشتغل عليها الراوي، في عرضه لمجلس شيوخ القبائل التي لبت دعوة أمنوكال القبيلة، واحترامهم لموقفه في تجاوز العرف وانتقاء اسم للمولود، وبالحدث عن طفل إيموهاغ الذي يحظى بعناية خاصة.

يرجع الروائي اقامه في سرد الأساليب التربوية الخاصة في مجتمع إيموهاغ، فعلى لسان الطفل اقامه يقول: "جدنا محمد الخير هو أيضا مدرّسنا، كان يلقننا كل صباح آيات من الذكر الحكيم ويشرح لنا معانيها، هو الذي تلقن علوم الدين والشريعة في الزاوية التيجانية. كان علي أن أجلب لوحى المصنوع من الخشب (أسلوم) لأكتب عليه، كنت أدعه كل مساء لدى أمي." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 13) فأمنوكال ليس رجلا سياسيا فحسب، إنه زوج وأب ومرقي،

يقوم بمختلف أدواره بذات الإلتقان والاهتمام، ومهمة تصوير هذا المزيج لم تكن سهلة لولا البراعة التصويرية التي أبداهها الراوي في تسوفت.

أمونكال هو ابن الصحراء، والروائي اقامه هو أيضا ابن الصحراء، و"قدر سليل الصحراء إذا كان مبدعا أن يتأرجح بين اغترابين: اغتراب بسبب الهوية الصحراوية المغترية عن نفسها كوطن، واغتراب بسبب الطبيعة الاغترابية للإبداع كرسالة". (الكوي، 2009، صفحة 119) هذا الاغتراب الذي يجعل ابن الصحراء يبحث عن ذاته، يكثر التأمل والصمت ويتدبر في ما حوله، يستثمر صمته وتأمله في فهم كينونة هذه الأرض، فهو الأقدر على فهمها وامتلاكها والحديث عنها، فقد بلغت آلية التصوير أوجها مع صورة أمونكال في مجتمع أهقار.

2-2 صورة أماهغ المقاتل الباسل:

قد يظن القارئ لهذه الرواية أن صورة أماهغ لا تخرج عن إطار الرجل الهادئ المسالم المستفيض صبرا، لكن الراوي يتقن رسم الصورة المقابلة لأماهغ المقاتل الشجاع الذي لا ترهبه الصحراء فكيف سترهبه شقاوة الأعداء؟، "ففي قبيلتنا، يتمتع الفرسان بمكانة مميزة، فهم يعتبرون حاة القبيلة ومصدر فخرها، فهم سلف أجدادهم، الذين ملئوا الصحراء بحكايات الشجاعة والبطولة". (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 24) إن إيموهاغ هم حراس الصحراء وأسيادها، اعتمدوا في وقت سابق على أسلوب الإغارة والدفاع عن النفس لضمان أمانهم وانتائهم لأرضهم، إنهم فرسان أشداء على أعدائهم رحماء بينهم وهو ما دونه تاريخهم على لسان المستشرقين والدارسين، إن الذود عن الأرض والعرض أحد أبرز قوانين الصحراء، وهو ما يجعل من إيموهاغ فرسانا عارفين بقوانين القتال محترفين فيه، وهو ما صوره صاحب رواية تسوفت في صورة الأب المقاتل سيدي أ محمد الخير الذي كان فارسا مغوارا قتلته يد الغدر ولكنه لم يسقط في ساحة المعركة، بل إن تعفن الجرح هو الذي كان سببا في موته، فلم يدخل نزاعا إلا وكان المنتصر فيه.

إن تنشئة الفارس تكون منذ الصغر، يعبر الراوي عن هذه الحقيقة على لسان أحد شخوص الرواية الرئيسية، "أ.أكلت ربيعي السادس عشر، مرت تلك الأيام والسنوات حافلة بأحداث كثيرة.. فلقد أهداني جدي فرسا أحمر اللون أطلقت عليه اسم: أوقاس، أو الفهد فقد كان سريع الحركة قوي البنية لقد استغرقت وقتا طويلا من أجل ترويضه". (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 33) فأن تكون أماهغ هذا يعني أن تكون فارسا لك فرسك الخاص بك، صديق أسفارك ورفيق حروبك، لتتعلم فنون القتال بعدد، وقد حرص بطل الرواية اقامه على تعلم المبارزة، فساعده صديق والده وتزنى في ترويض فرسه وتعلم المبارزة "ذات يوم طلبت منه أن يعلمني المبارزة بالسيف، أتذكر جيدا ذلك اليوم فما كان منه إلا أن يرمي لي تاضفت، التي تستعمل لقطع الخطب ويكلب مني جمع الخطب للقبيلة ليلا ونهارا، قد كان ذلك عملا شاقا، لكننا أمضينا وقتا ممتعا ونحن نتدرب على المبارزة بالسيف ورمي القوس". (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 33) فالجمع بين الشدة والصرامة أمر لا بد منه، والخروج من شرقة الطفولة ليستوي عود الفتى ويصبح فارسا شديدا لا بد من غرس جملة من المبادئ فيه، وقد كان اقامه بطل الرواية محظوظا بحياة الفروسية والبطولة التي نشأ فيها، وكان محاطا بأبرز شخصوها.

إن صورة أماهغ تنبعث من روح الصحراء، إذ تنعكس فيه صلابتها وقوتها وكرمها الخفي، و"من هنا صارت الصحراء حرماً، معبداً، قداسةً، حرية. صارت اللامكان في المكان. صارت روح المكان، بل وروح كل مكان. صارت المكان

الوحيد الواقع وراء المكان إلى حدٍ صار الاعتصام برحابها شرطاً للعبادة، وبرهاناً على الصلاة." (الكوفي، 2009، صفحة 50) فالصحراء التي تستعصي على من لا يعرفها وتنكش على أسرارها لمن لا تعرف، تفتح فؤده الحكي لأبنائها فتحنو عليهم وتكسبهم من روحها القوة والعطاء، تعلمهم معنى الجدّ والتقصّي، وتمنحهم دروس الصبر والصدق والامتنان، فأما هغ هو سيد الصحراء ومروضها وصديقها وابنها البار.

3- صورة ولت إيموهاغ من خلال تسوفت:

لا يمكننا الخوض في الحديث عن صورة المرأة في رواية تسوفت دون الخوض في إبراز دورها في مجتمع إيموهاغ، فالمرأة التارقية أو تماهغت أو ولت إيموهاغ أو تمط انموهاغ هي بنت الصحراء وسيدة القفار، حظيت المرأة في مجتمع إيموهاغ بمكانة تكاد تصفو وتعلو لتكون مقدسة عندهم، وتنحدر أهم القبائل النيلية في مجتمع إيموهاغ من الملكة تين هنان التي كانت أبلغ صورة عن المرأة المالكة الحاكمة السيدة في مجتمعا، "بقيت الكثير من الأشياء لم تقل حول تين هنان، وبقيت أيضا الكثير من الأمور الغامضة حول هذه الأسطورة، الملكة تين هنان أسالت الكثير من الخبر، وألهمت العديد من الكتاب والباحثين في مختلف أنحاء العالم" (أقمه، المرجع في تاريخ سكان الهقار، 2023، صفحة 10) ورغم اختلاف القصص التي تحدثت عن أصلها والتي أصبحت أساطير تتداولها المرويات والدراسات إلا أنها جميعها تتفق في كونها ملكة أنجبت أبناء انحدرت منهم قبائل إيموهاغ النيلية،

3-1 صورة ولت إيموهاغ الأم الرؤوم والزوجة الصبور:

يتحدث الراوي في روايته عن مكانة الأم في مجتمع إيموهاغ، ويقول على لسان البطل: "أي تحمل اسم كلة، روت لي عدة مرات، قصة اليوم الذي جئت فيه إلى هذا العالم، بكلماتها المليئة بالصور والأحاسيس، وصفت لي اللحظة التي قطعت فيها هيا الجبل السري، بسكين معقم بالنار كي أطلق أول صرخة لي في هذه الصحراء." (أقمه، تسوفت، 2023، صفحة 12) ويتحدث هنا عن النفاس الذي تقابله كلمة أمزور بلسان تماهغت، وعن العلاقة الجميلة والمتينة التي تربط الأم بابنها، فهي تقضي وقتها معه تناغيه وتغني له قصيدة إصوضاس التي تعني الهددهة وهي أغاني تنويم الأطفال التي أبدعت فيها الأمهات في مختلف الشعوب والألسن.

الأم هي خليفة الرجل في خيمته وهي المقاومة لصلاية الصحراء في غيابها، "في هذه الصحراء لا يوجد شخص إلا ويفكر دوما في صنيع الأم، فهي الروح التي تبعث الحياة في هذه الصحراء، تقوم بالأعمال الصعبة عندما يغادر الرجال في القوافل، إضافة إلى أعمالها اليومية تقوم بالعناية بالحيوانات وتضمن في نفس الوقت تربية أبنائها، ومع ذلك فلا ابتسامة لا تفارق وجهها." (أقمه، تسوفت، 2023، صفحة 22) إن الأم في مجتمع إيموهاغ تتمتع بمكانة مقدسة وتجد احتراماً من مختلف أطراف القبيلة، وتحظى بحرية كبيرة تخولها لأن تقوم بدورها بكل محبة وإخلاص، إن المرأة في دور الأم في مجتمع إيموهاغ هي ملكة خيمتها سيدة أسرته.

إن حديثنا عن مكانة الأم عند إيموهاغ تستوقفنا عند دور مميز جداً تقوم به وهو دور العازفة، إن تمط انموهاغ "تجيد الشعر والعزف على آلة الإمزاد، تلك الآلة وحيدة الوتر التي تصطحب ليالي الأنس والسمر، وتعزف للفرسان عند الذهاب إلى المعارك، فصول الإمزاد يرفع الهمة ويزيد من الشجاعة. يقال أن الفارس الذي يسمع الإمزاد قبل المعركة لن يتسرب الخوف إلى قلبه." (أقمه، تسوفت، 2023، صفحة 23) إن إمزاد ليس مجرد آلة موسيقية إنه بوح الروح

في الصحراء، إنه ذلك الصوت الشجي الذي يشق صمت الوجود فيثيره ويجاوره، إنها آلة تعزف عليها المرأة النبيلة فقط فيما يُمنع الرجل من لمسها أو الاقتراب منها، إنها المعزوفة التي تلخص الحياة وتعُدّل نبضها وتكشف الحبوءات، ينشأ أطفال إيموهاغ وهم يستمعون إلى هذا الصوت العذب فيطربون له ويتفاعلون معه بالإنصات والتأمل.

إن الزوجة الصبورة المقاومة التي تتقن أدوارها المختلفة تتقن أيضا العزف على آلة الوتر الوحيد، فـ "بعد أن أوقدت سستين النار لتبدأ في تحضير الشاي، جلست في وسط الحيمة وأخذت تعزف الایمزاد، إنها تجيد العزف، أن كل مقطوعة تعزفها كانت تذكرني بشيء ما في حياتنا. لم تفارق الابتسامة يوما وجهها حتى وهي بعيدة عن أهلها." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 37) يتحدث هذا المقطع عن جلسة أنس بين اقامه البطل مع زوجته سستين، حيث كان إمزاد رفيقها، وقد أبرز طقوس العزف عليه، فهو يرافق جلسات الأنس الليلة حيث تتوسط العازفة الحيمة تنتقل في عزفها بين مقطوعات وألحان مختلفة، لكلٍ منها وقعها في النفس إذ تتغلغل داخلها فتكشف اضطرابها وتعذله.

تتعلم الفتاة في مجتمع إيموهاغ العزف منذ نعومة أظفارها وتظل تعزف حتى تصبح جدة، ففي وصف البطل لتأثر جدته بتشتت أفراد القبيلة وكثرة تنقلاتهم، بقوله: "أحسست لوهلة أنها قد تهجش بالبكاء بين اللحظة والأخرى، لكنها توقفت عن الحديث فجأة، ذهبت وأحضرت الایمزاد وجلست منفردة تعزف لوحدها. كان عزفها مليئا بالحزن تارة، وتارة تعزف مقطوعات تبعث على الأمل، كانت عيناها مغلقتان طوال العزف." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 48) إنها حالة تهاهي وحلول مع إمزاد، ندرك هنا أهمية هذه الآلة بالنسبة لتمط انموهاغ إنها ليست مجرد آلة موسيقية، فعندما عجز الكلام وجفت الدموع لم تجد الجدة سوى إمزاد ملاذا لها ليبوح عما يراودها في قلبها، إنه عالم خلّبي يأسر العازفة والمستمع الحقيقي الذي يدرك سر هذا الصوت، تغلق الجد عينيها لأنها لا تحتاج في تلك اللحظات أي شيء من هذا العالم الحقيقي، إنها تترفرف في عالم خفي لا يدنس أمر دنيوي آناء عزفها الذي يسلب وجدانها في تلك اللحظات ويأسرها.

2-3 صورة ولت إيموهاغ المعلمة والحكّاءة:

إن ولت إيموهاغ هي امرأة تسقيها الكلمة ويروي ظمأها اللحن، وقد كان لها في أسلافها من سيدات إيموهاغ الأمثلة الكثيرة، "ومن أشهر شواعر التوارق نجد (داسين ولت ايها المولودة عام 1873 بالأهقار، من نسب رفيع، وهي أخت الأمونكال أخاموك أقي إهمه وعرفت بسداد رأيها وحكمتها، حتى أنه كان يُعاد إليها في بعض أمور السياسة، كما أنها اشتهرت بالشعر والموسيقى والعزف على الإمزاد، وتوفيت عام 1933)." (حينو، 2011، صفحة 127) فيموهاغ يحفظون أسماء الكثير من الشاعرات والعازفات اللواتي حظين بمكانة مرموقة وكن سيدات مجتمعهن، جتمع بين الإبداع والحكمة والحنكة السياسية أيضا.

أجاد الروائي رسم صورة تمط انموهاغ الأم والعازفة وسيزيل جهدا تصويريا أكبر في رسم صورة هذه المرأة في دور المعلمة الراوية، يقول على لسان بطله: "في المساء، وتحت ضوء النار المشتعلة، كانت أمنا كلة تعلمنا الحساب والكتابة بالتيفيناغ، كتابة حرص الأجداد على حفظها بأمانة من جيل إلى جيل (...). كانت تسمح بيدها اليسرى ما كتبته بيدها اليمنى على الرمال، ثم تطلب منا إعادتها. ولكن كنا ننتظر بشوق متى تبدأ بسرد الحكايات، حكاية تانس وونس، قصة هذين العاشقين التي لا تنتهي." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 21) إن هذا الدور التعليمي بالغ الأهمية مع غياب الجهات التي تتكفل بتعليم أطفال إيموهاغ، فقد كانت الأم هي التي تحفظ أبناءها لغتهم نطقا وكتابة، وكان إيموهاغ لا يرون

حاجة لتعلم شيء آخر خارج إطار هويتهم، فتعلم حروف تيفيناغ لم يكن يعني التواصل بالكتابة فقط بل أن هذه الحروف هي هويتهم التي تشربوها من خلال ما كانت ترسمه الأمهات على الرمل وتمسحه.

يعترف الروائي على لسان بطله قائلا: "كانت الأم بالنسبة لنا مصدر كل معلوماتنا، فمنها تعلمت كيفية نصب الحمية وكيفية تفكيكها وأساء أعمدها المختلفة، الأعمدة المركزية تهمنا كلين، والأعمدة الفرعية تهمناوين." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 21) ويذكر أنها علمته كيف يتعرف على النجوم وأساء المواسم والفصول وكيفية الحساب لها، وأنساب القبيلة وأساء مشايخها خاصة قبيلتهم تاتوق، وهي التي علمت أخواته الإناث أسرار الأعشاب والنباتات واستعمالاتها المختلفة، وكيفية تحضير العقاقير.

إن المرأة عند إيموهاغ هي حافظة التاريخ والتراث وناقلة بأمانة للأجيال، يفتح الطفل عينيه فيكشف العالم من خلالها، "روت لي أي قصص كثيرة عن شجاعة الفرسان الذين يسكنون في أهنت. حك لي بطولات كثيرة لكيل أهنت، وكيل آهن ملن، وقبائل إكشمضن، ذكرت لي أساء كثيرة للوديان والآبار: إيسلفان، تين تبوراق، أغرف ناسير، تين توبا، تيزلكوكاتين، كانت أساء أسمع بها لأول مرة." (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 29) وما كان له أن يتعرف عليها سوى من خلال ذاكرة أمه التي تحرص على تعليمه أجدديات الحياة وتوطد علاقته بأرضه، فإيموهاغ أبناء الأرض يتعرفون عليها ويحفظون معالمها ويكشفون أسرارها.

حين تحدث الروائي عن طفولته في قريته تسوفت وعلاقته بمجده التي رتبته منذ فطامه من الرضاعة والتي كان يناديها أي، وقد كانت له معلمة أيضا، "علمتني كيف أكتب التيفيناغ وكيف أنطق المفردات بشكل صحيح، لقد تعرفت على العالم من خلال حكاياتها (...)" (اقامه، تسوفت، 2023، صفحة 49) روت لي جدتي عدة مرات، كيف كان الجنود الفرنسيون يبحثون عن أطفال طوارق في سن المدرس لإجبارهم على تعلم اللغة والكتابة الفرنسية، ليسلبوهم لغتهم وهويتهم ويجبرونهم على التعاون مع العدو الفرنسي.

إن صورة المرأة المعلمة الصبورة من أجمل صور نساء إيموهاغ، "فعلا من أهم أدوار الأم التارقية تعليم أبنائها لغة التماهاق، ترسم لهم الحروف على الرمال، لا سبورة ولا أستاذ مكنون ولا مفتش يراقب، ورغم ذلك كانت لغة التماهاق راقية، يتعامل بها التوارق مع الإدارة الفرنسية دون عقدة." (مليكه، صفحة 43) حين كان إيموهاغ يعتدون بلغتهم وانتائم ويفرضون على الآخر التواصل معهم بما يعرفون، كان للمرأة دور كبير جدا في تحقيق ذلك، كان أطفال إيموهاغ يتشربون هويتهم مع حليب أمهاتهم.

تمكن الروائي اقامه أن يرسم لنا صورة المرأة في مجتمع إيموهاغ بشكل دقيق، وأبرز دورها الكبير في الحفاظ على تراث هذا المجتمع، فـ "العنصر النسوي هو الناقل للتراث اللامادي بين الأجيال، ونضيف قائلين بأن هذا العنصر في مجتمع إيموهاغ"، قد يكون ناقلا للأشعار "تيسواي"، وقد يكون هو القائل والمنشئ لها أصلا." (حمداوي، 2025، صفحة 372) وقد كانت المرأة تعي هذا الدور ولا تتأخر عن القيام به بكل حب وبشكل يومي، وهو الذي حفظ هذا التراث الشفوي على مر قرون خلت دون ضياع، إن صورة المرأة عند إيموهاغ من خلال رواية تسوفت مثلت الصورة الحقيقية لتلك المرأة الصابرة الصامدة في وجه التقلبات المناخية والحفاظة للأسرة في غياب الرجل الطويل.

إيموهاغ هم أبناء الأرض و"الأرض، في كل الثقافات، منذ أقدم الأزمان، ليست مجرد أرض، ولكنها كيان مقدس. وانتهاك هذا الكيان، بأي صورة من الصور، ضربٌ من خطيئة، ولذلك لا بد أن يستنزل اللعنة." (الكوفي، 2009، صفحة 7) إن إيموهاغ يحملون في أرواحهم الكثير من المعتقدات التي فرضتها عليهم الصحراء، هذه الأرض التي وجدت فيهم الأبناء البارين الذين يحترمون قسوتها ويحتدون في التأقلم معها، يفرضون في أنفسهم حبها واحترامها، فتشكلت بينها علاقة وطيدة لم تغيرها صروف الزمان وتقلباته.

فيما تحدث الروائي عن الحلم في موضعين أو ثلاث من هذه الرواية بدا أن للحلم خصوصية عند إيموهاغ، "لهذا السبب تحترم الأم الأهلوية (كطوارق الصحراء الكبرى مثلاً)، الولع بالأمنية تحريماً صارماً وترى فيها تهوؤاً، بل وكفراً بالقدر، سيما ذلك الضرب من الأماني الموجه إلى الذات الإلهية في صورة دعاء." (الكوفي، 2009، صفحة 13) يزرح مجتمع إيموهاغ بالعديد من الأفكار التي قد تبدو غريبة وتعلوها لحة من العجائية إلا أننا بالنظر إلى تاريخهم وارتباطهم بالصحراء، يجعل من الكثير منها معقولة وتجد تفسيراً مقبولاً رغم غرابتها. وقد أشار الروائي إلى بعضها بشكل مباشر أو غير مباشر، إن صاحب الرواية يتحدث بشكل عفوي كونه ابن تامنغست وأحد أبناء إيموهاغ، ولكننا نحن جمهور المتلقين يمكن رصد هذه الإشارات بشكل سريع.

حاولت في هذا البحث أن أرصد صورة إيموهاغ من خلال رواية تسوفت لمحمد اقامه، إن "ثقافة الطوارق، كأي ثقافة عريقة، بدئية. وبدئية أمرٌ يعني أنها لا بد أن تكون مشبعة بما يمكن أن أسميه (روح التكوين)، أي تلك الروح الأسطورية التي كُتبت بها الكتب المقدسة (العهد القديم بالخصوص)." (الكوفي، 2009، صفحة 206) وقد استأنست لهذه الرواية كونها قدمت لنا صورة حقيقية لإيموهاغ دون تكلف أو تعقيد، فقد كنا أمام سرد يقترب من الكتابة التاريخية السير ذاتية، والبلاغة التصويرية التي أبداها الروائي كانت واضحة جداً وأنتجت لنا سرداً تصويرياً توصيفياً لإيموهاغ من خلال صورتين جزئيتين تمثلتا في صورة أماهغ (الرجل التارقي) وتمط انموهاغ (المرأة التارقية) والطفل أيضاً في هذا المجتمع. أبرز هذا البحث مكانة اللغة والإبداع الأدبي عند إيموهاغ، حتى الحكايات والأساطير المرتبطة بهذا المجتمع تنبثق من جوهره، "ذلك أنّ أشكال التعبير الشعري عند التارقي كلها تقوم على رؤية جمالية تستحيل نشأتها خارج الحياة الواقعية للمجتمع، وعلى مستوى التصوير الفني فإنّ القصيدة لا تزال ترتبط بالصحراء (تينزي، تامسنا، تنظرفت) كلها أسماء لقساوة واحدة، يظلّ الشعر هو القادر على تسجيلها." (فرتوني، 2021، صفحة 98) إن التصوير الفني في هذه الرواية أبرز تلك الواقعية التي لم تخرج عن إطارها الصورة الفنية الواردة في الرواية، والتي أبدعها الروائي بشكل كبير.

خاتمة:

في ختام هذا البحث لا بد أن نقف على أن الروائي محمد اقامه وظف العديد من التقنيات السردية ليصعد آلية الوصف عنده، فظهرت صورة إيموهاغ جلية في ثنايا هذه الرواية ويمكن للمتلقي التعرف على صورة أماهغ وتمط انموهاغ بشكل يسير ودقيق، ومن النتائج الهامة التي وصل إليها هذا البحث:

- قدّمت رواية تسوفت لمحمد اقامه أمودجا لما قد يُصطلح عليه أدب إيموهاغ، وهو أدب ينبع من بيئة إيموهاغ ويغوص في عاداتهم وتقاليدهم فيتقن تصويرها وبعث تفاصيلها، ويستعين بكلمات بلسان تامهغت بمتغيراتها

المختلفة، وقد أبدع فيه محمد اقامه الجمع بين التاريخ والسرد الناق، وإن كانت ملامحه لم تتضح بعد فالترامية الإبداعية ضرورية للتعريف به بصفة أدق.

● عكست رواية تسوفت العديد من القيم بمجتمع إيموهاغ تمثلت في قيم اجتماعية تحدث فيها عن عادات وتقاليد إيموهاغ في النفاس والختان والزفاف وفي علاقة إيموهاغ ببيئتهم وطقسها وحيوانها، وقيم تربوية متمثلة في دور الأم والجدة ونمط رعايته وتنشئته لصغارهن، ومراقبة الأب لابنه وحرصه على تدريبه وتهنيئته ليكون فارسا مغوارا.

● استطاع محمد اقامه أن يرسم لنا صورة أماغه وتمط انموهاغ بشكل دقيق، واستعان بعدته السردية واللغوية ليصل إلى هذا الأمر، فاتضح لنا معالم شخصية رجل وامرأة هذا المجتمع الذي لا يمكن التعبير عنه أصدق من تعبير أبنائه كونهم يسردون ما عايشوه وما يفتقدونه في الوقت الراهن. وتضافرت اللغتان العربية وتماهغت (التارقية) لتحقيق هذه اللعبة التصويرية.

● كانت صورة إيموهاغ كفرد ومجتمع جلية في رواية تسوفت، وقد أسهمت تقنيات الروائي السردية وصدقه في توصيف مكونات هذا المجتمع، إن تجلي صورة إيموهاغ تحقق بالتقنيات التصويرية المعتمدة في هذه الرواية، ويمكن لقارئ هذه الرواية تخيل صورة حقيقية لهذا المجتمع لا تكاد تختلف عنا قد يجده في هذا المجتمع لاحقا، لأن الصور كانت قريبة جدا مما هي عليه في الواقع.

● وبالتالي فالإجابة عن إشكالية هذا البحث ستكون بالاعتراف باستطاعة الراوي أن يصور مجتمع إيموهاغ من خلال تجربته السردية المدروسة، والإقرار بقدرة اللغة على تصوير تفاصيل إيموهاغ وصورة الرجل والمرأة فيه، وأعتقد أن الاستعانة بمفردات تماهغت كانت تقنية ذكية جدا قربت الصورة الحقيقية للرجل والمرأة من هذا المجتمع للمتلقين.

الرواية كأنها قاموس تماهغت مصغر إذ احتوت على ما يربو عن تسعين كلمة، اتبع اقامه تقنية تعليمها في المتن بنجمة أو سيف ليم شرحا في الهامش أو في المتن في بعض الأحيان. تمثل رواية تسوفت نموذجا دقيقا لما قد يُصطلح عليه بأدب إيموهاغ الذي يصور هذا المجتمع بشكل دقيق جدا، فيقدم توليفة أجناسية ترقى لأن تمثل تفاصيل هذا المجتمع وتعبر عنه، ولهذا فمن المهم أن أقترح ضرورة التعريف بمثل هذه الأعمال السردية المعاصرة، ويوصي البحث بفتح أفق التعريف بهذا الأدب تنظيرا ونمذجة لإثراء السرد الجزائري المعاصر.

قائمة مراجع

1. أبرزولة، ع. (2023). التماس بين الشعر التارقي والشعر العربي الفصيح. الموروث. (1) 5،
2. اقامه، م. (2023). المرجع في تاريخ سكان الهقار. (1) أدليس.
3. اقامه، م. (2023). تسوفت. (1) أدليس.
4. الكوني، إ. (2009). وطني صحراء كبرى. (1) أدليس: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
5. حمداوي، ع. (2025، 1). يوينو. (فاعلية المرأة التارقية في أدب إيموهاغ. مجلة إشكالات في اللغة والأدب. (2) 14،

6. حينوني، ر. (2011). الكلمة والنغم والحركة وسيادة المرأة التارقية .حوليات التراث.(11)
7. فرتوني، م. (2021). الشعر عند إيموهاغ كممارسة ثقافية .(1 éd.)بياض.
8. مليكة، أ. ب. (s.d.). الأمينوكال الحاج باي أق أخاموك، رجل وتاريخ 2. دار عبد اللطيف للطباعة والنشر.